كلمة التحرير

الثقافة الإسلامية.. السيرورة والصيرورة

هيئة التحرير*

يعد موضوع الثقافة الإسلامية وحضورها في الواقع مساراً ممتداً، قد يصل في استرداده الزمني القرونَ الأولىٰ من الحضارة الإسلامية. وثمة لغط بائن رافق هذا المصطلح في سيرورته وصيرورته التاريخية والمعرفية. ولعل جانباً من هذا اللغط كامن في مفهوم الثقافة، وتوصيفها بالإسلامية. فمصطلح الثقافة مصطلح مراوغ ومفخخ في الوقت ذاته؛ لذلك ألفينا عشرات التعريفات التي عبّرت عن هذا المصطلح، وأشهرها التعريف الذي وضعته اليونيسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) "جميع السمات الروحية، والمادية، والفكرية، والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات." وكذلك تعريف الإلكسو (المنظمة العربية للعلوم والثقافة) "الثقافة تشتمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع وما يتصل بهما من مهارات أو يعين عليهما من وسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرىٰ، متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها".

ومصطلح الثقافة عابر للتخصصات؛ إذ لا يكاد مجال معرفي يخلو من ارتباط بهذا المصطلح. وغدا الاقتران الارتباطي لهذا المصطلح مع غيره من المصطلحات ملمحاً شائعاً في الدراسات المعرفية والأكاديمية والاجتماعية والإنسانية؛ فثمة تنمية ثقافية، واستلاب ثقافي، وجغرافيا ثقافية، وأمن ثقافي، وغزو ثقافي، وهوية ثقافية، وتبعية ثقافية إلخ. وربما نجد هذا "الاقتران اللفظي" لفظياً فقط بما سمّاه لويس دللو بـ"الأصدقاء المزيفون".

* هيئة التحرير (2024). كلمة التحرير: الثقافة الإسلامية.. السيرورة والصيرورة، **مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"**، مجلد 30، العدد108، 5-10. DOI: 10.35632/citj.v30i108.10355

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي © 2024

وحتى نتمكن من التواصل مع المصطلح والمفهوم، يجدر بنا أن نعي حدود هذا المصطلح وبنيته التكوينية وخصائصه التي تميزه من غيره في حقل الدلالات؛ إذ ينبغي لهذا المصطلح أن يكون واضحاً، ومحدداً، ومميزاً للإشكاليات. وتزداد المسؤولية المعرفية كلما كان المصطلح متصلاً بالأبعاد البنائية للشخصية (فرداً ومجتمعاً)، مثل وقوعه مع حقل الدين أو اللغة أو التاريخ أو العلوم الاجتماعية بصورة عامة. ومن هذا النطاق "الثقافة الإسلامية".

يمثّل التوصيف بكلمة "الإسلامية" وإضافتها إلى الثقافة نوعاً من التمايز مع المنظومات المعرفية والفكرية والعقدية الأخرى؛ كقولنا الثقافة اليهودية والمسيحية والعلمانية إلخ. و"الثقافة الإسلامية" تعني بأبسط صورها وأوضحها أن هذه الثقافة تنتسب إلى الإسلام، وأن هذه الثقافة في جانبها المعياري والمعرفي والوجودي والقيمي تنهل من الإسلام، ليكون إطاراً ناظماً في مبادئها وتصوراتها، ومتجلياً في الرؤية الكلية للفرد والمجتمع والأمة، وفي تطبيقاتهم وسلوكاتهم.

وبناء على هذا الارتباط البنيوي والموضوعي والقيمي نعي الارتباط الكبير بين الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي (عقيدة وشريعة)، وندرك في الوقت نفسه أن كثيراً من خصائص الإسلام هي ذاتها خصائص الثقافة الإسلامية. ولكن هذا التواشج الكبير بين الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي، لا يحجب بعض الخصوصيات المتعلقة أساساً بحدود المصطلحات، ومساحة التحرّك والمثاقفة مع الأفكار والعقائد، والفئة المستهدفة من الخطابين؛ خطاب الثقافة الإسلامية وخطاب الدين الإسلامي، وآليات الخطاب والتوجيه، ومنهجيةِ التعامل مع مصادر التشريع إلخ. وعدم الوعي بهذا التمايز الناعم، والخلط بين الثقافة الإسلامية والمصطلحات ذات الحقل الدلالي المشترك مثل العقيدة الإسلامية أو الفلسفة الإسلامية أو الفكر الإسلامي إلخ وعدم وضوح التمايزات فيما بينها، أدّى إلى تأسيس الأطر التكوينية والمنهاجية لمادة الثقافة الإسلامية؛ بناءً على انحياز الأستاذ أو مُكنته في علم ما كالفقه أو الحديث أو العقيدة أو الفلسفة. فالثقافة الإسلامية تستمد من الإسلام مادتها ورؤيتها، ولكنها ليست هي هي.

وكما أن ثمة بعض الخصوصيات التي تميز الثقافة الإسلامية من الدين الإسلامي، فإن هناك كذلك فصلاً ووصلاً بينها وبين غيرها من الثقافات، لا سيما تلك التي تتعلق بنوع المعرفة والتفكير والإيديولوجيا ونطاق العقائد. فثمة خطاب متسق ومتناغم بين رؤية الثقافة الإسلامية وبعض رؤى ثقافات الأديان الأخرى وبعض الثقافات الوضعية والعلمانية، لا سيما في مجال القيم والأخلاق مثل الحرية والعدل والصدق... . وعلى الرغم من هذا الوصل والتشابه في الأفكار والنتائج، إلا أننا قد نقع في خلل منهجي وتصوّري إنْ وضعنا هذه الثقافات كلها في دائرة التماثل تبعاً للتشابه الكبير في الفكرة والنتيجة؛ إذ ثمة تمايز في المنطلقات والتصوّرات والرؤى الكلية وأحياناً آليات الخطاب ووسائله وضوابطه؛ فمفهوم الإنسان الملتزم يتفاوت كثيراً بين رؤية الثقافة الإسلامية والماركسية والوجودية إلخ. وكذلك الأمر في مفهوم الحرية؛ إذ الاختلاف الكلي في الرؤية والهدف والوسيلة؛ ففي الثقافة الإسلامية يُبنى الفرد على أولوية الرقابة الإلهية والرقابة الذاتية لا على مفهوم القانون فحسب.

لذلك فالمثقف المسلم مُلزَم بالاتساق مع التصوّر الإسلامي للوجود، الذي تمثله سلوكياً الثقافة الإسلامية، ويغدو مطبقاً للمبادئ والمعايير والمنطلقات التي تتسق مع المقاصد الكُلية للإسلام ومقاصد الشريعة؛ فالسماحة في البيع والشراء جزء من هذا التصوّر، وصورة عملية للثقافة الإسلامية في علاقة المسلم بالآخرين في مجال محدد من مجالات التجارة. والأمانة العلمية في البحث العلمي أساس في التصوّر الإسلامي لمفهوم الخشية والمراقبة، وصورة عملية للثقافة الإسلامية في علاقة المسلم مع العِلْم. وهكذا نرى تجليات التصوّر الإسلامي في مجالات الحياة كلها، وتتبُّع معالم الثقافة الإسلامية في سلوك أفراد المجتمع. لذلك ينبغي على المسلم أن يتأدّب وينهل قدراً معقولاً من العقيدة والشريعة، كي يغدو قادراً على الانتقال من القوة إلى الفعل، ومن التأسيس إلى البناء، فليس ثمة انفصام بين بنيته "الإسلامية"، وممارسته الحياتية التي تنتظمها ثقافته الإسلامية.

وقد يحدث هذا الفصام في شخصية المسلم عندما يفتقد شروط المعيارية وبوصلة الرؤية ومادة الوعي، وحينما يتمثّل بيئة لا تتسق مع بنيته التأسيسية والتصوّرية. وهذا قد نجده في الثقافة

الإسلامية وفي غيرها من الثقافات، ولكنه في الثقافة الإسلامية آكد وأوجب، لما لها من اقتران متجذر مع الدين. وقد نجد حديثاً في الفكر الغربي عن الفصام والخلل الذي يصيب الشخصية عند انتمائها لما لا يتسق وبيئتها، فذا مونتسكيو في كتابه (روح الشرائع، ج1، ص18) يقول: "ويجب أن تكون هذه القوانين موافقة للطبيعة ولمبدأ الحكومة القائمة أو التي يراد إقامتها، وذلك سواء عليها أكانت موجدة لها كما هو أمر القوانين السياسية، أم كانت حافظة لها كما هو أمر القوانين المدنية. ويجب أن تكون تلك القوانين خاصة بطبيعة البلد، خاصة بالإقليم البارد أو الحار أو المعتدل، وبطبيعة الأرض وموقعها واتساعها، وبجنس حياة الأمم أو الزراع أو الصائدين أو الرعاة، ويجب أن تناسب درجة الحرية التي يمكن أن يبيحها النظام، ودين الأهلين وعواطفهم وغناهم وعددهم وتجارتهم وطبائعهم ومناهجهم، ثم يوجد لتلك القوانين صلات فيما بينها، صلات بأصلها وبمقصد المشترع وبنظام الأمور التي قامت عليها، فيجب أن ينظر إليها من جميع هذه الأغراض. وهذا ما أحاول صنعه في هذا الكتاب، فأبحث في جميع هذه الصلات، وهي التي يتألف من مجموعها ما يُسمىٰ روح الشرائع".

وقد نجد هذا الفصام في عدم وعي "المثقف المسلم" بأن للثقافة الإسلامية أُسساً تنطلق منها في تحديد علاقة المسلم الممتدة. وهي متصلة بالجوانب الفلسفية المعروفة (الإبستمولوجيا، والأنطولوجيا، والإكسولوجيا)؛ أي (المعرفة والوجود والقيم). وللثقافة الإسلامية معالم خاصة في تحرير هذه الثلاثية. ففي الإطار المعرفي تؤسس الثقافة الإسلامية لمعادلة واضحة في بناء فكر المسلم، من خلال تبيان العلاقة بين مصادر المعرفة وأدواتها؛ إذ العلاقة التناغمية والتواشجية بين المصادر (الوحي والعالَم)، والأدوات (العقل والحس). والعلاقة التكاملية بين الأدوات والمصادر. كما تصوغ هذه الثقافة رؤية المسلم للمعرفة وماهيتها ومصدرها وكيفية التعامل معها. وفي الإطار الوجودي تصوغ الثقافة الإسلامية نظرة محددة وصريحة تجاه علاقة الإنسان بالخالق والخلق والمخلوق، ومكانة التوحيد في البناء العقدي والفكري والوجداني والسلوكي للإنسان، ومقصد خلق الإنسان، ودوره في الاستخلاف وعمارة الأرض. وفي الإطار القيمي تُظهر لنا الثقافة الإسلامية انعكاسات الإطارين

السابقين (المعرفي والوجودي) في سلوك المسلم وتفاعله مع مفردات الكون والحياة. فيصبح حرصه على البيئة -على سبيل المثال- متصلاً بالتطبيق العملي لمفهوم الاستخلاف وإعمار الكون، ووعيه الكبير لمفهوم الإصلاح والفساد.

إنّ عدم الوعي بمصادر الثقافة الإسلامية يُعدّ عقبة كأداء في ترسيخ معنى الثقافة الإسلامية في وعي المجتمع، ومن ثمّ العمل على بنائه؛ إذ من المنطق أن تتسق المصادر مع الرؤية والماهية، فالمصادر الأساسية لكل فكر أو دين أو عقيدة تصوغ معالم هذه الفكر أو العقيدة، فالمصادر التأسيسية للثقافة المسيحية متصلة بالعهد الجديد، وعند بعضهم بالعهدين الجديد والقديم، وكذلك الثقافة اليهودية متصلة بالعهد القديم، وهكذا في باقي الأديان والفرق. والثقافة الإسلامية تسير على النهج نفسه الذي يضمن بقاء الثقافة منسجمة مع الرؤية والوسائل والفئة المستهدفة والنتائج. ولعل أهم مصادر الثقافة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية، مع الوعي الكامل بمنهجية التعامل معهما. والوعي كذلك بأهمية التراث في تكوين الثقافة الإسلامية، مع الإدارك بأن التراث ليس هو الأصول التاسيسية، وبأنه اجتهاد في فهم النص في سياق الزمان والمكان، والإفادة منه بما يخدم هذه الثقافة. وليس ثمة حاجز معرفي أو نفسي أو ديني بين ثقافتنا الإسلامية والخبرة البشرية، التي نفيد منها بالقدر الذي نأنس به في تطوير معالم ثقافتنا، وننقد ما يؤذي خطاب الفطرة الذي شوّهته بعض النظريات والأفكار، ما أفقد الإنسان قدرته على إعمار الكون ونفع الخلق.

ثمة تحديات عميقة تواجه الثقافة الإسلامية في الوقت الحاضر، وهي تحديات داخلية وخارجية. ولعل التحديات الداخلية تفرض علينا مراجعة واعية لمواد تدريس الثقافة الإسلامية في الجامعات العربية والإسلامية خاصةً، وكل جامعة تحتضن مادة "الإسلام" أو "الثقافة الإسلامية" أو "مدخل إلى الحضارة العربية الإسلامية"، لإعادة تأسيس وعينا بقيمة الثقافة الإسلامية التي تحتضن في جزء كبير منها خصائص الإسلام ذاته، من كونها: إلهية المصدر، والشمول، والتوازن، والاتساق، والتكامل، والوسطية، والواقعية، والعقلانية، والثبات، والمرونة. إلخ. وعلينا أن ندرك الفرق

الجوهري -كما أسلفنا- بين الثقافة الإسلامية وغيرها من مصطلحات مشتركة معها في الحقل الدلالي. أما التحديات الخارجية، فبعيداً عن نظريات المؤامرة والتمزيق، ينبغي أن ندرك حقيقة بائنة لكل ذي لبّ بأن الثقافة الطارئة التي نبتت في بيئة معرفية وثقافية وعقدية تخالف بيئتنا، ما صنعت يوماً أمة ناجزة مبدعة. لذا علينا أن نُخضع الأفكار لمعايير "الثقافة الإسلامية" النابعة من التصوّري الكلي أو الرؤية الكلية للإسلام أو رؤية العالم؛ للمايزة بين الغثّ والسمين.